مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني

التربية بالحوار

الأستاذ الدكتور : عبدالكريم بكار

الرياض

١٤٣١هـ/٢٠١٠م

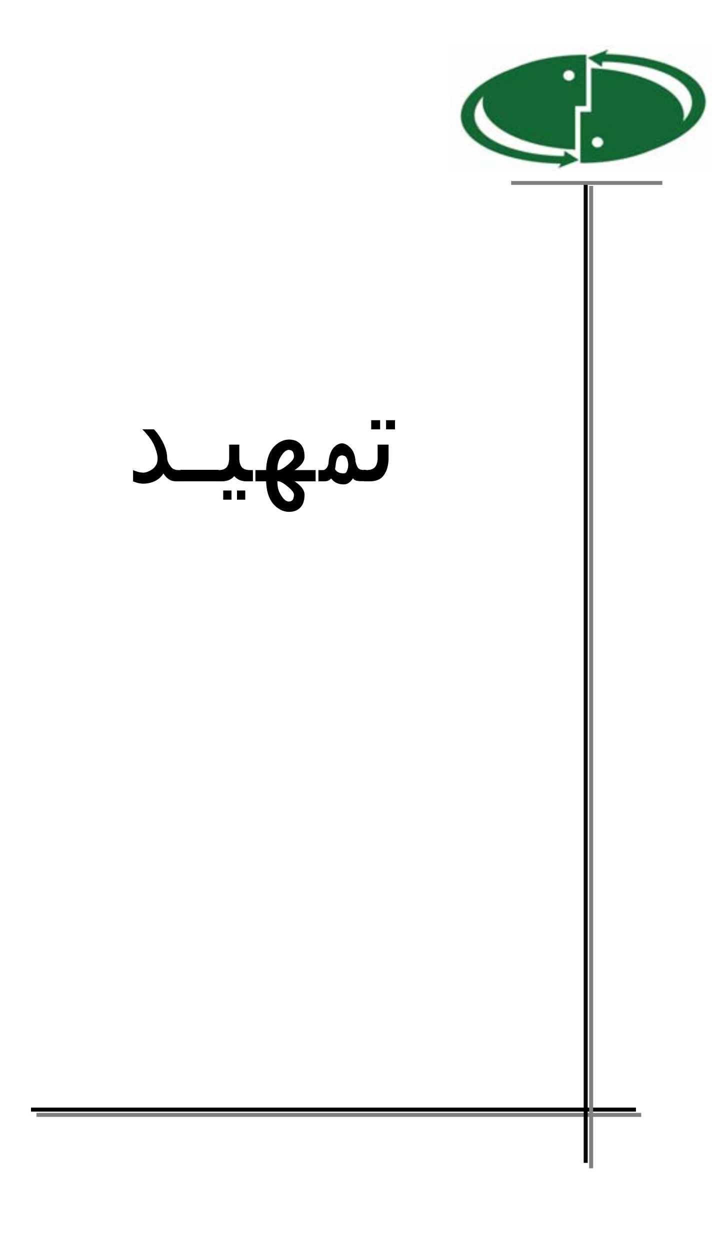
ح مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني،١٤٣١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر.
بكار، عبدالكريم
التربية بالحوار.. الأستاذ الدكتور: عبدالكريم بكار،
الرياض، ط ١، ١٤٣١هـ
ص: ١٧ × ٢١ سم.
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٠٠٧-٤-٧
١ - التربية الإسلامية أ. العنوان
ديوي: ٣٧٧,١ ١٤٢٩/٥٨٦٩هـ

الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ
رقم الإيداع: ١٤٢٩/٥٨٦٩
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٠٠٧-٤-٧

ص.ب. ٨٩٨٦٦، الرياض ١١٦٩٢
البريد الإلكتروني: info@kacnd.org
www.kacnd.org



المحتويـــات



تمهيـد



تمهيــد:

الحمــد لله رب العــالمين، والــصلاة والــسلام علــى نبينــا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومـن سلك سـبيلهم، ودعـا بدعوتهم إلى يوم الدين.. أما بعد:

فإنه لا يخفى علينا أن شروط الحياة الكريمة تزداد تعقيداً، كما لا يخفى أنّ عالمنا يزداد ازدحاماً في كلِّ شيء: الأفكار، والمذاهب، والتحليلات، والفرص، والتحديات.. كلُّ هذا يزدحم ويكثر على نحو غير مألوف وغير معهود، والسير وسط كلِّ هذا الزحام يحتاج إلى المزيد من البصيرة، والمزيد من المعرفة، والمزيد من الاستقامة وصلابة التدين، إضافة إلى المزيد من المهارة والإتقان.

وصار من المعترف به لدى كلِّ تربويّ العالَم أنَّ الأسرة هي التي ستبذر في نفسِ الطفل كلَّ بذور الخير والفضيلة، وأنّ الأسرة هي التي ستضع الركائزَ الفكريةَ والنفسيةَ في شخصية الطفل.

وعلى المدرسة – من خلال الاتفاق مع الأسرة في منهج التربية، وفي العناية بالأطفال ومعرفة مشكلاتهم.. – أن تُكمل الطريق الذي نفترض أن تكون الأسرة قد بدأته، وأن تنوب قدر الإمكان عن الأُسر التي قصَّرت في أداء دورها، مع أن الذي ثبت أنه لا أحد يستطيع أن يقوم بدور الأسرة، وبدور البيت في التربية، والتوجيه على نحو جيد.

نحن نعرف أن العولمة تقوم بعملية تهميشٍ واسعةِ النطاق لكلِّ

المؤسسات والسلطات التربوية وغير التربوية لصالح توسيع سلطة المال والمالكين له.

ومن وجه آخر ورثنا عن عصور الانحطاط – في القرون الثلاثة الماضية – على أقل تقدير عادات وتقاليد تتعلق بأسلوب التربية في البيوت وأسلوب التعليم في المدارس، وتلك العاداتُ والتقاليدُ تؤكد باستمرار هيمنة المعلم والوالد – على نحو خاص – على الطفل وتَسْيِيره بحسب رؤية الكبار.

كان يسود في الأسرة في بعض البلاد نظامٌ شبهُ عسكري، نظامٌ صارمٌ ومتنفِّذٌ بكلِّ ما تعنيه الكلمة، وقد وصل الأمر إلى أن يمثِّل الأخُ الأكبرُ الإخوةَ الأصغرَ سناً أمام السلطة العليا في الأسرة، وهي الأب. فالأخ الأكبر يستمع من إخوته إلى طلباتهم وحاجاتهم، ثم يوصلها إلى الأب!. تماماً كما يفعل الجندي حين يريد شيئاً من ضابط كبير مسؤول عنه، فعليه أن يتبع طريق التسلسل بحسب الرتب العسكرية!

واشتهرت في بعض الجماعات والاتجاهات عبارةٌ تؤكد معنى الإذعان المطلق من الطالب لأستاذه بعيداً عن الحوار، وبعيداً عن الاستفهام والنقد.. قال أحدهم : " من قال لشيخه : لِمَ ؟ لم يُفلح أبدّاً !"، فإذا رأى شيئاً من أستاذه، أو سمع منه شيئاً، ثم قال له : لِمَ فعلتَ ذلك، ولِمَ حدث ذلك، ولِمَ قلت ذلك...؟ فهذا الرجل لن يفلح أبداً في سيرِه إلى الله تعالى، وفي ارتقائه بنفسه!

كان الأهل في كثير من البلدان حين يذهبون بالطفل إلى

الكتاب يقولون للمعلم : " لك اللحم، ولنا العظم " أي : لك أن تضرب حتى لو أدى ذلك إلى تمزق اللحم، أما العظم فليس من حقك كسرُهُ، وكأن الوالد هو الذي سيقوم بتلك المهمة، لتكتمل دائرة العنف على الطفل المسكين..!

وكانت نتيجةُ تلك التربية تخريجَ أجيال يُسيطر عليها اليأسُ، والخوف والاتكالية، وانتظار المساعدة عوضاً عن تقديمها إلى الآخرين، أجيال لا تُحسن التعبير عن نفسها وحاجاتها وآرائها، ولا تشعر بالاعتزاز في ذواتها وإمكاناتها.

وكانت الحصيلة النهائية لكلِّ ذلك انحدارَ مكانةِ الأمة بين الأمم، وطَمَعَ الأعداء فيها، وانتشار التعانف والتقاتل في ديارها عوضاً عن التراحم والتعاون والتناصر والتدافع بالتي هي أرفق وأحس وأجمل.

الحوارُ والجدالَ كلمتان تدلان على شيء مشترك، تدلان على دوران الكلام بين طرفين ؛ أي : انتقال الكلام من طرف إلى آخر يتكلم هذا تارة، ويُنصت له الآخر، ثم يتحدث هذا المنصت ؛ ليُنصت الذي كان قبل قليل متحدثاً..

ونلمح في العديد من النصوص والمناظرات أن الجدالَ كثيراً ما يميل إلى الخصومة الكلامية، كما ينطوي على حرص كلِّ واحد من المتجادلين على غلبة خصمه وإفحامه وإلزامه بالحجة.

ونتيجة لهذا فإن من المألوف أن يقع خلال الجدل بعضُ الظلم وبعضُ الادِّعاء في المبالغة، والكذب، والتطاول، واستخفاف أحد

المتجادلين بالآخر.. وقد قال الله جلَّ وعلا : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ (الحج : ٨)، ومن هنا وجهنا الله تعالى إلى أن نجادل المجادلة المقيدة بالأدب الرفيع، والمجادلة بالحق الساعية إليَّه، حيث قال جلَّ ثناؤه: ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل : ١٢٥)، ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٦).

أي بالجميل واللطيف من القول.

إنّ الترفق في الكلام، ومقابلة كلام المخالف بكلام أرفق منه وأحسن.. يُعد وصية عامة من الله تعالى لأنبيائه وعباده الصالحين، وهي وصية الرسل لأتباعهم، ولدينا العديد من النصوص التي تشير إلى ذلك:

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً... ﴾ (البقرة : ٨٣).

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً ﴾ (الإسراء : ٥٣).

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (المؤمنون : ٣).

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون : ٩٦).

وقال الله تعالى موجهاً موسى وهارون – عليهما السلام –

عندما أمرهما بالذهاب إلى فرعون : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (طه : ٤٤).

وقال عليه الصلاة والسلام :

(إن الله رفيقٌ يحبّ الرفق، ويُعطي على الرفق ما لا يُعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه)[1].

(تبسمُكَ في وجه أخيك صدقة)[2].

(الكلمةُ الطيبة صدقة)[3].

الحوارُ: هو تداول الكلام بين شخصين أو فريقين أيضاً، وكما أن الجدال هو تداول للكلام، كذلك الحوار هو تداول للكلام، لكن الحوار لا يحمل صفة الخصومة، وإنما يحمل صفة الحرص على العلم والفهم والمعرفة والاطلاع.

والدافع الأساسي للمحاور الجيد ليس إقناع من يحاوره بوجهة نظره، وليس جعله يقف إلى جانبه، وإنما دافعه الأساسي أن يُريَ محاوره ما لا يراه ؛ أي : أن يَدلّ محاوره على نقطة لا يراها أو خُفيت عليه، وأن يُطلعه على شيء غائب عن ذهنه، شيء لا يعلمه، وفي الوقت نفسه – وهو يحاوره – يأمل أن يظفر هو أيضاً من محاوره بأن يكشف له عن غموض أمور لا يراها أو لا يعرفها.

إن كلا المتحاورينِ يطلبان العلم والوضوح ومعرفة الحق، ولا

(١) مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب : فضل الرفق، رقم ٢٥٩٣.

(٢) صحيح ابن حبان، رقم ٤٧٤.

(٣) صحيح ابن حبان، رقم ٤٧٢.

شك في أن بعض الحوار قد ينقلب إلى جدل عقيم ومقيت، كما أن بعض الجدل قد يتسم بالرفق والحكمة، ومهمتنا دائماً أن نكون محاورين جيدين، ومجادلين بالتي هي أحسن، ودعاةً إلى الحق بأحسن أسلوب، وأرفع خُلق، وأكثر مراعاة لمن نجادلهم ونحاورهم وندعوهم.

وقد قص الله (عزَّ وجلَّ) علينا في كتابه الكريم بعض المراجعات التي أذن بها لبعض عباده تلطفاً وكرماً ؛ ليُعلمنا ويؤسس في أذهاننا الاهتمام بما يقوله الآخرون مهما كانت الوضعية التي هم فيها سيئة ومتدنية.

إن حكم الله (عزَّ وجلَّ) نافذ، وقولُهُ هو القولُ الحقُّ الفصلُ، ولا مُعقّب لحكمه وأمره، ومع هذا فإن بعضَ خيار عباده كما أخبر سبحانه، وكذلك بعض شرار عباده أيضاً.. هؤلاء وهؤلاء راجعوا الله (عزَّ وجلَّ) في بعض الأمور يقول الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ، يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (هود : ٧٤–٧٦).

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ (طه : ١٢٤–١٢٦).

ولنستمع إلى كلام الله تعالى لإبليس عدو الله، وردِّه على سؤال له، ورد الباري جلّ وعلا على سؤاله:

﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ، قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ، قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ (الحجر : ٣٠–٣٣).

قام إبليس هنا بقياس : إنه خُلق من نار، وآدم عليه السلام خُلق من طين، ولمَّا كانت النار تحرق الطين، فهو إذاً أقوى منه، فكيف يسجد مَنْ خُلق مَنْ قوة لشيء خُلق من ضعف.. هذا قياس إبليس..! فأجابه الباري سبحانه : ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ، قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ، قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلاَّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الحجر : ٣٤–٤٣).

وقص الله تعالى علينا قصة المرأة التي كانت تحاور النبي ﷺ في ظهار زوجها لها فقال : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (المجادلة : ١).

يقول المفسرون : إن خولة بنت ثعلبة – رضي الله عنها – وهي زوجة أوس بن الصامت، جاءت إلى رسول الله ﷺ تشكو إليه ظلم زوجها ، فقالت يا رسول الله : أَكَلَ شبابي، ونثرتُ له بطني – أي كُثر ولدها – حتى إذا كبُرت سني ظاهر مني " أي قال لها : أنت عليَ كظهر أمي " فجعل رسول الله ﷺ يقول : (ما أراك إلا قد حَرُمتِ عليه).

فتقول : يا رسول الله ما طلقني والله، وإن لي منه صبيةً صغاراً : إن ضممتُهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتُهم إليّ جاعوا.. فماذا ترى..!؟

وأخذت المرأة تجادله ﷺ وتراجعه فأنزل الله تعالى ما فيه فرجٌ ومخرجٌ لتلك المرأة ولنساء الأمة من بعدها ممن هنّ في مثل حالها، والتي ذكر الله (عزَّ وجلَّ) فيها كفارة الظهار، حيث قال : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً ﴾ (المجادلة:٢).

وأما مُراجعات الأمم لأنبيائهم – عليهم السلام – فهي كثيرة مشهورة في الكتاب الحكيم.

إن الحوار ليس أسلوباً نستخدمه في الأسرة من أجل تربية أبنائنا أو نستخدمه في المدرسة من أجل تعليمهم وتفتيح أذهانهم.. إن مجاله ووظيفته ليسا محصورين في ذلك.. إن الحوار في حقيقة الأمر هو أسلوب ومنهج حياة يجب أن يسود داخل الأسرة وفي المدرسة وفي

المـسجد وفي المؤسـسة والـشركة والنـادي، وبـين كـلِّ الفئـات والـشرائح الاجتماعيـة، وهـو ضـروري لـيس للجُهـال أو الـضعفاء أو الـصغار فحسب، بـل إنـه حيـوي للجميـع، وكـلٌّ يستفيد منـه، وإن غياب الحوار عن حياتنا سيؤذي الجميع من دون استثناء؛ لأن البديل عنه سـيء دائمـاً، وهـو القهـر، والكبـت، والأنانيـة، واتّبـاع الهـوى، وتصلب الذهن، ومحدودية الرؤية والخبرة، وإعجاب كـلِّ ذي رأي برأيه.

لا يكـاد يخلـو مجتمـع ولا مؤسـسة ولا أسـرة ولا مدرسـة مـن شيء من الحوار والمراجعة والجدل، هذه هي طبيعة الأشياء، لكـن هـل كـلُّ حـوار يؤدي إلى تربيـة جيـدة..؟ وهـل أيُّ حـوار كـافٍ لـزرع المفاهيم والقيم والعادات الجيدة والـصحيحة في شخـصيات الـصغار والكبار.. ؟

بالتأكيد لا، وإلا لو كان كلُّ حوار كافياً لكُنّا جميعاً قد حصلنا على ثمرات الحوار، ولكُنّا جميعاً في حالة حسنة.

إن المطلـوب في تربيتنـا الجديـدة هـو حـوار جيـد : موضـوعي وعلمـي، وقـائم علـى أسـس أخلاقيـة متينـة، وحـين يتـوافر الحـوار الجيد والمتين والمستمر فإنه يولـد – ويقـضي بطريقـة غير مباشـرة – عـدداً ممتـازاً مـن الأفكـار والمفـاهيم والـرؤى والمبـادئ والمثـل والعـادات، والـسلوكيات الـصحيحة والراشـدة الـشديدة.. ومـا إنْ نقـرر أن نتخـذ مـن الحـوار أسـلوباً في التربيـة، وفي التعلـيم، وفي معالجـة المـشكلات، وفي التواصـل، وفي التفـاهم.. بطريقـة آليـة،

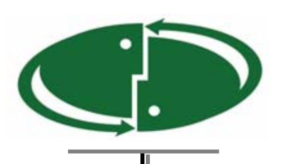
وبطريقة غير مقصودة حتى تتحسن أشياء كثيرة في رؤانا وفي مفاهيمنا وفي عاداتنا.

هذا كلُّه يجعلني أركز حديثي في هذا الكتاب على محورين اثنين :

المحور الأول : وسأتحدث فيه – بعون الله وحوله – عن الشروط التي يجب توافرها في حواراتنا حتى تسير في الطريق الصحيح، ومن ثَمَّ نستطيع أن نقول : إن حواراتنا ناجحة، ومن حقنا أيضاً أن ننتظر منها الثمار التربوية المرجوة.

أما المحور الثاني : فيتركز في شرح ما يجب علينا تأسيسه من خلال الحوار على المستوى العقلي، والمستوى الفكري، والمستوى الأخلاقي والسلوكي، والمستوى الاجتماعي.

إننا حين نُراعي آداب الحوار، وشروطه، ونمارسه بطريقة صحيحة نكون قد شَرَعنا في الوقت نفسه في تربية الإنسان المتزن، والمواطن الصالح، والإيجابي والكفء، والمنتج، ونكون قد بدأنا نمطاً جديداً من التربية نجني ثماره أشكالاً وألواناً – بإذن الله – من غير شعور منا.



المحور الأول

شروط الحوار المنتج



شروط الحوار المنتج

إن شروط الحوار المنتج والناجح عديدة سأسوق أهمها في المفردات الآتية:

أولاً : يقوم الحوار بين الأقران وفي الأسر وفي المدارس على إيمان عميق : بأنّ من حق كلِّ إنسان أن يُعبّر عن ذاته، وأنّ يدافع عن قناعاته في إطار المبادئ الكبرى المجمع عليها.

إن إتاحة الفرصة للمرء كي يوضح حاجاته، ويعبر عن مزاجه وآرائه يُعد مطلباً أساسياً لنمو الحياة العقلية والروحية، ولنمو الشخصية، وهو مطلب أساسي لشعور الإنسان بالكرامة.

إن الشخص الذي لا يُستخدم معه أسلوب الحوار يصعب جداً أن نقول : إنه يشعر بأنه إنسان مكرّم كما خلقه اللّه جلَّ وعلا.

ولو أننا تأملنا في الكتاب العزيز لوجدنا عشرات الآيات التي تُحدثنا عن مجادلات الناس المؤمنين وغير المؤمنين للرسل والأنبياء – عليهم السلام –، المؤمنون يجادلون أنبياءهم، وغير المؤمنين يجادلون أيضاً.

ولو تأملنا لوجدنا كذلك عشرات الآيات التي قصّ اللّه تعالى علينا فيها مواقف الكفار ومعتقداتهم، وآراءهم ؛ ذلك

لأن الإيمان لا يكون إلا على قاعدة الاختيار كما قال تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾(سورة البقرة: ٢٥٦)، وبناءً على الاختيار تكون المسؤولية، وبناءً على المسؤولية يكون الحساب.

ليس من العدل في شيء أن يُتاح لأحد أفراد الأسرة أن يعبر عن آرائه ورغباته ويُحرم باقي إخوته من ذلك، وليس من العدل في شيء أن يفرض أحدُ السّمار نفسه على مجلس ساعتين متتاليتين دون أن يتيح الفرصة لأي من الحاضرين بتوجيه سؤال أو اعتراض أو بإدلاء دلوه في شرح القضية المطروحة.

إذاً.. من شروط نجاح الحوار، الإيمان بحق الناس في المشاركة في الحديث، والإيمان بأن تكافؤ الفرص في الحديث مطلب شرعي، ومطلب أخلاقي وحضاري.

وكم رأينا من يتكلم نصف ساعة بكلام مكررٍ مُمِلٍّ سطحي، وإذا حاول أحد الحاضرين مقاطعته بعشر كلمات تضايق وتبرّم، وكأنه الشخص الوحيد الذي يحق له الكلام!

إن من المهم أن نعتقد أن أطفالنا في حاجة ماسة إلى أن ننمي فيهم فضيلة احترام الآخرين وتقديرهم، وأفضل سبيل إلى ذلك هو أن نحترم الأطفال بأن نتيح لهم الفرصة ليتكلموا ويتحاوروا ويشاركوا ويسألوا ويجيبوا.. وسيكون من غير

المنطقي أن تطلب من إنسان لا تُكنّ له الاحترام أن يحترمك، أو يحترم غيرك.

ثانياً : حتى يصبح الحوار أسلوب حياة يجب أن نؤمن بأن الواحد منا مهما بلغ من التحصيل، ومهما كانت عقليته ممتازة وخبراته عظيمة فإنه في نهاية المطاف لا يستطيع إلا أن يصدر عن رؤية جزئية وجانبية محدودة.. وهكذا كلُّ البشر.

من خلال الحوار يتم كشف النقاط المظلمة، وتسليط الضوء على الزوايا المعتمة، وتتعزّز الرؤى والاجتهادات، وتتلاقح الأفكار، وتتضح الآراء والطروحات ؛ لذلك قالوا : "إن الأفكار لا تنضج إلا إذ لاكَتْها ألسنةٌ مُناظرة".

إن مئة من الناس لو اشتركوا في بلورة قضية فإنه لا ضمان مطلقاً لوصولهم إلى الحق والصواب القطعي، لكن لا نرتاب في أنّ اجتماع عشرة أطباء على تشخيص حالة مرضية يكون في العادة أقرب إلى الحق والحقيقة من تشخيص طبيب واحد انفراد برأيه.

إن ذكاء الجماعة أعلى من ذكاء الفرد، ومن خلال الحوار نستطيع معرفة رأي الجماعات والمجموعات والاستفادة من أكبر قدر ممكن من الآراء.

اجتمع في إحدى الجامعات مجلس صندوق الطلاب ؛ ليضع ضوابط لإقراض الطلاب من ذلك الصندوق، وبعد أن تم الاتفاق على تلك الضوابط قال أحد الحاضرين : ألا

تلاحظون أنه ليس بيننا أيُّ طالب من طلال الجامعة مع أن الطلاب هم الذين سيستفيدون من هذا الصندوق، وهم أدرى بشؤونهم، ويجب أن نستنتج آراءهم من خلال فئة تمثلهم ؟ فردّ عليه أحد أعضاء مجلس الصندوق، وقال : إن الطلاب ليسوا على درجة كافية من النضج والخبرة كي يسهموا في بلورة ضوابط عمل الصندوق.. ودار جدال عنيف بين الأعضاء حول إشراك الطلاب في الحوار حول قضية الإقراض، وانتصر في نهاية الأمر الرأي الذي يؤيد مشاورة الطلاب، وحضر ثلاثة من طلاب السنة الأخيرة من ثلاث كليات، واطّلعوا على الضوابط، وأبدى أحدهم اعتراضاً على شرط وضعه أعضاء الصندوق، كان ذلك الشرط : " يُحرَم من الحصول على قرض كلُّ طالب لم يصل مجموع معدله التراكمي إلى تقدير جيد وقت تقديم طلبه : " وقالوا : إن الهدف من ذلك هو جعل القرض محفزاً للطلاب على الاجتهاد، وهي وجهة نظر منطقية، ولكن قال الطالب : إن الفقر وشدة الحاجة من الأمور التي تؤدي ببعض الطلاب إلى التقصير في دراستهم والحصول على معدلات متدنية، وذكر لهم الطالب حالات من ذلك القبيل، حيث كان الطلاب يُطلبون إلى العمل في المساء من أجل الإنفاق على أسرهم ومساعدتها.. وهكذا فإن هذا الشرط يعد ظلماً ؛ لأنه يحرم الشباب المكافحين والعصاميين من المساعدة التي هم في

أمس الحاجة إليها ، وهكذا اقتنع معظم الأعضاء بكلام الطالب، وتم إلغاء ذلك الشرط.

ثالثاً : كثيراً ما يغيب الحوار عن بيوتنا وعن مدارسنا وعن حياتنا العامة ؛ لأننا نخشى من أن يجلب الحوار لنا بعض الانتقادات.

إن المدّرس الذي تعوّد أن يكون سيد الموقف وسيد المكان بين طلابه وفي مدرسته لا يرتاح للحوار ؛ لأنه يرى فيه انتقاصاً لتلك السيادة، وقد يسمع خلال الحوار من الآراء ما يشير إلى تقصيره في عمله.

وحين يجري الحوار حول مدى استفادة الطلاب من مادة من المواد فإن هناك إمكانية كبيرة لأن يقول أحدهم : إن أسلوب تدريسك ليس جيداً ، أو إن استخدام وسائل الإيضاح من المعلم ليس على ما ينبغي.

يتم في الدول الصناعية والمتقدمة تقويم أداء المدرسين من الطلاب دون حساسية ؛ لأنهم ينظرون إلى ذلك التقويم على أنه من حق الطلاب، وعلى أنه أفضل محفز للمعلم كي يرفع مستوى أدائه.

ونحن ننظر إلى آرائنا على أنها جزء من شخصيتنا وجزء من كرامتنا ؛ لذلك نتضايق من أي مناقشة، أو أي تفنيد وتضعيف لآرائنا ، ولو أننا نظرنا إلى الأمور بمنظار مختلف لتحسن حالُنا.

إن ما توصلنا إليه من آراء وطرق ومواقف هو اجتهاد ،

والمجتهد يخطئ ويصيب، وحين نجتهد في تقديم خدمة – التربية خدمة تقدّمها الأسرة إلى الطفل، والتعليم خدمة أيضاً تقدّمها المدرسة إلى الطالب – فإن من حق من يتلقى الخدمة أن يقول : " هذه خدمة جيدة، أو يقول : هذه خدمة غير جيدة.. " كما قالوا : إذا أردت أن تتعرف إلى جودة طعام مطعم من المطاعم فلا تسأل صاحب المطعم، ولا تسأل مدير المطعم، ولا تسأل العاملين فيه ؛ فهؤلاء أصحاب مصلحة في أن يقولوا : طعامنا أطيب طعام.. لذلك عليك أن تسأل الذي تذوق الطعام : هل هذا الطعام لذيذ.. هل هذا الطعام نظيف؟ أيضاً هذا الطالب أو الطفل حين نسأله عن التربية التي نقدمها إليه، أو عن الخدمة التي نقدمها إليه، فهو في كلامه مجتهد يخطئ ويصيب، لكن من خلال المناقشة يراجع كلٌّ واحد منا نفسه ويستزيد في سبيل الصواب، ونقترب من الحق أكثر فأكثر.

حين نتحدث عن الحوار فإننا في الحقيقة نتحدث عن شيئين :

الشيء الأول : الحوار بوصفه جوّا، وثقافة، وأسلوب حياة، وأسلوب تقرير للأمور، وأسلوب تبنٍّ للقرارات والأشياء، وهذا ما علينا أن نعمل على توصيله في حياتنا على المدى البعيد.

الشيء الثاني : إثارة الحوا – حول قضية من القضايا داخل صف مدرسي أو داخل أسرة أو في مجلس سمر أو في ندوة أو مؤتمر..

شروط الحوار الناجح :

نجاح الحوار وسيرُه بطريقة جيدة، وخروجه بنتائج ذات قيمة.. كلُّ هذا يتطلب تحقيق بعض الشروط، منها:

الشرط الأول : تحديد موضوع النقاش :

ما لم يتم تحديد موضوع النقاش، فإن الحوار قد لا يأتي بأي نتيجة، وتجد الناس آنذاك يُشرِّقون ويغرّبون، وفي ذهن كلِّ واحد صورة – عن الموضوع الذي يُناقش – مختلفة عن الصورة التي في ذهن الآخر.

وأذكر في مواقف كثيرة لا أكاد أحصيها أننا كنا نتحاور مع بعض الأصدقاء والزملاء في قضايا تاريخية واجتماعية وعلمية وثقافية ويطول بنا الحوار، ونخرج من مسألة اجتماعية إلى مسألة أخلاقية إلى مسألة فقهية.. وهكذا نشعر بأننا تحدثنا في كلِّ شيء، ولكن لم نتفق على شيء، ولم نخرج بأي شيء..! لا بأس في أن نُنْفق بعض الوقت في تحديد ما نريد أن نتحاور فيه على وجه الدقة.

يدور الحوار غالباً حول مشكلة، وليس من العسير توضيح أبعاد المشكلة موضع البحث، وسيكون من مسؤولية المتحاورين تنبيه كلِّ من يخرج عن موضوع الحوار وإيقافه عن الاسترسال؛ حتى يتمكنوا من بلورة ما يُريدون بلورته على نحو جيد.

الشرط الثاني : إعطاء معلومات للمتحاورين:

قبل الشروع في الحوار لابد من إعطاء معلومات للمتحاورين عن القضية التي سيتحاورون فيها ، وهذا ضروري جداً لطلاب المدارس والجامعات. إن المعلم حين يختار المناقشة والحوار أسلوباً للتعليم يكون قد اختار أسلوباً شديد التميز وعظيم الفائدة له ولطلابه ، لكن التجربة دلّتنا على أن الطلاب لا يشاركون أستاذهم الحوار ، ولا يتفاعلون معه ، ليس لأنهم سلبيون ولا يحبون الحوار ، ولكن لأنهم لا يملكون معلومات ملائمة تمكنهم من المشاركة ورفع الرأس، ولهذا فإن البيوت تجري فيها حوارات يومية كثيرة ، ويشارك معظم أفراد الأسرة فيها.. والسبب في ذلك أن الأسرة تناقش موضوعات اجتماعية ، ولدى كلِّ أفراد الأسرة درجة من المعرفة في تلك الموضوعات، ولذلك يشاركون ؛ فهم يعرفون ماذا يقولون ؟ لكن إلى الآن في معظم المدارس والجامعات ما استطعنا أن نتحول من أسلوب التلقين إلى أسلوب الحوار.. والسبب الجوهري في تصوري هو أن الطلاب لا يملكون المعلومات المطلوبة للمشاركة في الحوار.

فإذا أراد المعلم أن يناقش مع طلابه مثلاً أهمية العنصر البشري في التربية ، فإن عليه من خلال عشر دقائق إلى ربع ساعة أن يقدم معلومات حول عدد السكان في بلده، ونسبة الشباب فيه ، وحول الرؤية السامية للإنسان، وكونه مركز الكون والأساس في كلِّ نهضة ، ثم يتحدث عن قيمة العلم والتدريس في ترقية

الشخصية وصقلها، ويقدم إليهم بعض المبادئ والمفاهيم حول شروط التفوق والنجاح على الصعيد الخلقي، وعلى الصعيد المهاري والتقني.

وسوف يجد المدرس – كما سيجد غيره – تجاوباً كبيراً من الطلاب ومشاركة في الحوار والمناقشة أكثر مما هو متوقع.

الشرط الثالث : **تحديد ما ليس موضعاً للحوار** :

من الواضح أننا حين نتحاور في أي مسألة من المسائل فإن ذلك يعني أن لدينا نوعاً من الاختلاف، ولو حول بعض الفروع والجزئيات، ولا يكون هناك حوار بين المتفقين في كلِّ شيء؛ لأنهم بماذا سيتحاورون.. وليس في اختلافنا ما هو معيب، لكن الذي يحدث في كثير من الأحيان أن نُخفق في التعبير عن آرائنا ومعتقداتنا، ومن ثمَّ نصبح كمن يدور حول نفسه، وفي كثير من الحوارات والمجادلات الساخنة جداً التي كنت أظن فيها أن المتحاورين قد فقدوا ما بينهم من لحمة المودة والأخوة، في تلك الحوارات يأتي من يقول لنا : ألم اقل لكم : لسنا مختلفين ونحن متفقون على الأسس !

فيأتي أحد المحاورين ويقول : هذا ليس بصحيح ؛ نحن مختلفون تماماً، ولكنك لست فاهماً لنا.

بعد أن يتم إلقاء شيء من الضوء على موضوع الحوار، يمكن أن نقول : نحن لا نقتنع لا في كذا ولا في كذا، وأن نقول : إن الذي يحتاج إلى حوار وبحث هو كذا وكذا.

إذا فعلنا ذلك صار الطريق ممهّداً لأن يكون حوارنا حواراً في محله، وفي أشياء هي فعلاً تحتاج إلى حوار حقيقي.

الشرط الرابع : البعد عن التجريح :

من المهم في كلِّ حوار البعد عن التجريح الشخصي، والتعريض بالمحاور الآخر ؛ لأننا بذلك نكون قد ابتعدنا كثيراً عن الأدب الرفيع، وعمّا يجب أن يسود من اللباقة وتجنب الإحراج.

ويكمن التجريح الشخصي في العديد من الصور : فقد يتجسد في ذكر مخالفة سلوك المحاور لما يقول، فإذا قال أحد المتحاورين : إن المحافظة على الوقت أساس في النجاح.. فقد يأتي من المتحاورين معه من يقول له : وهل أنت تحافظ على الوقت حتى تقول ذلك..؟

وإذا قال المحاور : إذا أخفقنا في تربية أبنائنا فمعنى ذلك أننا لن نفلح في أي شيء.. فقد يأتي من يقول له : أنت الذي تقول ذلك، وكلنا يعرف وضع أولادك!

ويكون التجريح أحياناً بالتعريض لقبيلة الرجل أو جماعته أو مؤسسته.

إن البشر مخلوقات عاطفية في المقام الأول، والكلام بالنسبة إليهم يداوي ويجرح ويقتل، ويجب أن نهتم بهذا ونتنبه إليه.

الشرط الخامس : إدارة الحوار:

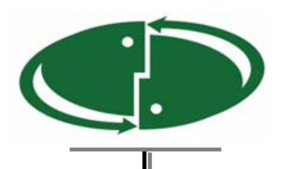
يحدث أثناء الحوار الجماعي أن يدور الكلام بين شخصين، ويسكت الباقون، وتسود روح من التحدي، ويكثر الصياح،

وترتفع الأصوات، ويكثر الابتعاد عن جوهر الموضوع، وكلما حاول أحد الحاضرين أن يُعلّق بكلمة، أو يشارك بطرح فكرة، أسكته أحد القطبين المتحاورين ؛ ليتكلم هو ويستمر في مباراته مع خصمه !

من الواجب في هذه الحالة أن يقود الحوار أحد الحضور ؛ ليجعل لكلِّ الحاضرين في المجلس قسطاً من الوقت مساوياً لغيره، ومُنهياً الاستقطاب الثنائي للمجلس.

الشرط السادس : تلخيص أهم النقاط:

حتى نشعر بأننا خرجنا بشيء ملموس فإن علينا أن نقوم باستعراض أهمّ ما توصلنا إليه، واستعراض جميع الخيوط المبعثرة والمشتتة، وتقديمها في ملخص مختصر يشتمل على ما تمّ الاتفاق عليه، وعلى ما يحتاج إلى المزيد من الحث، وعلى ما لا سبيل إلى وفاق فيه ؛ لكونه غامضاً أو جزئياً أو فرعياً، كما يشتمل التلخيص على أهم الفوائد والطرائف الفكرية والعلمية التي وردت في النقاش.



المحور الثاني

ما يجب تأسيسه من خلال الحوار



يتعلق المحور الثاني بما نستهدف إرساءه وتعميقه من قيم ومفاهيم وعادات يمكن أن نصل إليها عن طريق الحوار بوصفه أسلوباً للمعايشة، وأسلوباً لاكتشاف الحقيقة ومعرفة الواقع، ويأخذني الحديث هنا في نقاط عشر أسوقها على النحو الآتي :

النقطة الأولى :

الخُلق الأساسي والتوجه الجوهري الذي ينبغي أن ينطوي عليه صدر المحاور هو الحرص على معرفة الحق والوصول إلى الحقيقة.

فالحوار ليس وسيلة للتفوق على المنافسين، وليس وسيلة لإفحام المخالفين والمخاصمين؛ إنه وسيلة عظيمة للتعلم والفهم وتحسين الرؤية.. ومن هنا فإن المحاور لا يبالي هل يصل إلى الحقيقة من خلال تشغيله لذهنه؟ أو من خلال ما يسمعه من محاوره . وهذا الإخلاص ارتقى لدى بعض الناس إلى حدود رفيعة ومثالية على نحو ما رُوي عن حاتم الأصم – رحمه الله – من قوله : معي ثلاث خصال أظهر بها على خصمي ؛ أي : أغلب بها خصمي، قالوا وما هي ؟ قال : أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ نفسي من أن أتجاهل عليه؛ أي : أضبط نفسي من أن أسيء الأدب أثناء الحوار فبلغت مقالته هذا الإمام أحمد – رحمه الله – فقال :

سبحان الله.. ما كان أعقله من رجل[1].

إن حلقة الحوار هي حلقة تعلم، وإن الأجر على وقت في طلب العلم إذا حصل فيه الإخلاص أعظم من الأجر على وقت يمضي في أداة النافلة، وهذا يعني أن نوقف الحوار إذا شعرنا بأنه انقلب إلى جلَبَة، وإلى إظهار للنفس بدلاً من أن يكون طريقاً إلى العلم والفهم.

النقطة الثانية:

مما نود تربية أنفسنا وتنشئة أبنائنا عليه، حسن الاستماع لمن يتحدث أمامنا، سواء كان ذلك في حوار أو كان في خُطبة أو في محاضرة أو في مجلس من مجالس السمر.. إن استماعنا للمتحدث ينُمّ عن احترامنا لشخصه، واحترامنا للعلم الذي يذكره بيننا.

الاستماع الجيد يكون بالإصغاء التام، وحضور الذهن، وانفتاح النفس للسماع، كما يكون بالنظر إلى وجه المتحدث، فالعينان مرآة الروح، وهما تُنظّمان التفاعل الداخلي بين المتحدث والسامع.

يتشاغل بعضُ الناس بأمور تافهة، ويتركون مُحاضِرَهم ومُجالسهم في حالة أشبه بحالة مَنْ يكلم نفسَه، وبعضهم يقاطع المتحدث قبل أن ينهي فكرته، وبعضهم يشتغل عن السماع الجيد بتحضير الردِّ على المتحدث ؛ ولذلك فإن ردودَ كثير من المتحاورين لا تكون في محلها أحياناً؛ لأنه في أثناء كلام محاوِره كان

(١) حلية الأولياء (٨٢/٨)؛ المنظم في التاريخ، ابن الجوزي (١٢٧/١١).

مشغولاً عنه، ولم يستوعب ما قال، وكان يُحضِّر ردًّا.. ولذا يكثر أن يقول لأحد الحاضرين : " أنا ما قلت هذا، وما قصدتُ.. هذا لأنك لم تنتبه إليِّ ولم تفهم عني.. ".

بعض الناس يُكمل الجملة للمتحدث قبل أن ينطق بها، كأنه يريد أن يقول : " ما تقوله معروف لنا " وهذا كلُّهُ – في تصوري – منافٍ لآداب السماع.

إن كرام المثقفين يتفاعلون مع المتحدّث، حتى وإن كان يتحدث بكلام يعرفونه، أو يعرفون ما هو أكثر منه، وما هو فوقه.

ويذكرون في هذا السياق أنّ شاباً قام في مجلس الفقيه العالم عطاء بن رباح – رحمه الله – وأخذ هذا الشاب يتحدث أمام عطاء، فأنصت إليه عطاء، وكأنه يسمع حديثه لأول مرة، فلما انتهى الشابُ وانصرف أبدى الحاضرون تعجبّهم من إنصات عطاء فقال : والله إني لأعلم الذي قاله قبل أن يولد أبوه..[1] ولكنه أدبٌ رفيع يعلمه عطاء – رحمه الله – للحاضرين.

مَن لي بإنسان إذا خاصمتــهُ وجَهلتُ، كان الحلمُ ردَّ جوابه
وتراه يُصغِي للحديثِ بسمعِه وبقلــبِهِ ولعلَّـــه أدرَى بـــه

النقطة الثالثة :

من المهم أن نتعود في حواراتنا على الاستدلال لما نقول، وأن نتعلم كيف نضبط أنفسنا، فلا نسوق من الدعاوي ما يزيد على

(١) شعب الإيمان، البيهقي، رقم ١٧٠٨.

حجم البراهين والأدلة المتوافرة، وصار الاهتمام بقول الحق، والاهتمام بالدقة في الطرح، والالتزام بالموضوعية.. ضعيفاً إلى أبعد الحدود، بل يؤسفني أن أقول : إن فن الدعاية والإعلام قد اخترق كلَّ المجالات ؛ لتسود المبالغة والتزيُّد والتقوّل كثيراً من الوسائل الإعلامية، وكثيراً من المؤتمرات والندوات!

وقد كان علماؤنا – رحمهم الله – يضعون قواعد جميلة في هذا الشأن حين قالوا : إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مدَّعياً فالدليل.

ليدقق كلٌّ منا في صحة الأخبار التي ينقلها من هنا وهناك، وإذا كان المحاور يسوق رأياً جديداً فليقدم الأدلة السمعية والعقلية على الصحة.

تتجسد آفة كثير من الكلام الذي يُقال في الظن، وتتجسد أيضاً في الهوى، فكثير من الناس ليس لديهم سوى ظنون وأوهام ونظريات محتملة، ورؤىً غير ممحّصة، ثم يسوقها وكأنها قطعيات لا خلاف فيها، فيخدع المستمعين الذين لا خبرة لهم ولا معرفة.

أما الهوى فإنه يدفع صاحبه إلى أن يقول ما ليس مُقتنعاً به، وما لا يعتقده من الآراء والأقوال، ولكن لمصلحة ما ساقه، وصار يحتج به، وقال الله تعالى لنبي إسرائيل : ﴿ ... أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة : ٨٧).

وقال سبحانه موجهاً الخطاب إلى هذه الأمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (الحجرات : ٦).

النقطة الرابعة :

من المهم الاعتراف بالمحدودية وقلة العلم في تربيتنا لأبنائنا ، وفي علاقاتنا مع طلابنا ، وفي حواراتنا ومحاضراتنا ، وفي كلِّ شؤوننا.

إن البداية لكلِّ إصلاح، ولكلِّ تقدّم أن نعترف بجهلنا وضعفنا وعيوبنا وأمراضنا.

إذا سأل الطفل سؤالاً لا نعرف جوابه فلا ينبغي أن ننهره ونوبّخه، كما لا ينبغي أن نقدّم جواباً لا نعتقد صحّته، أو نرى أنه جواب غير مقنع.. الواجب أن نقول الكلمة التي قالها كبار أئمة الهدى وعظماء العقلاء في كلِّ زمان ومكان ،إنها كلمة : لا أدري.. لا أعلم.

ويمكن أن نقدم وعداً بالعثور على جواب، وسوف نُخطئ إذا ظننا أن منزلتنا في عيون طلابنا سوف تهتزّ إذا قلنا كلمة : لا أدري.. لا أعلم.

إن القضية معكوسة ؛ لأن المعلم الذي يقول : لا أعلم.. يُشيع الثقة في نفوس طلابه، ويكتسب المزيد من المصداقية ، حيث يترسّخ في نفوس الطلاب أنهم يحصلون على المعلومات الصحيحة والدقيقة، ورحمَّ الله مالك بن أنس عندما قال : إذا أخطأ العالم

كلمة : " لا أدري " أُصيبتْ مَقاتِلَةُ[1].

ويذكرون أن ثعلباً وهو أحد أئمة نحاة الكوفة سُئل عن مسألة فقال : لا أدري، ثم سئل عن مسألة أخرى، فقال : لا أدري، وسئل عن مسألة ثالثة، فقال : لا أدري، فاستغرب السائل من هذا الموقف، وضاق ذرعاً، وقال له : أسألك، فتقول : لا أدري، وأسألك فتقول : لا أدري.. فما الذي تدريه..؟ فأجاب ثعلب : يا هذا لو كان عند أمي مقابل كلِّ مسألة لا أعرفها بعرةٌ لا ستَغْنَتْ. أي : لو كانت والدة ثعلب تملك بعرة مقابل كلِّ مسألة يجهلها ثعلب لصارت من وراء ثمن ذلك البعر امرأة غنية، وكأنه يقول : ما أجهله أكثر مما أعلمه.

في المواقف الحوارية تثور الحميّةُ، ويخاف كلُّ محاور أن يُفحمَهُ خصمُهُ، ويُسكتَهُ من خلال طرح سؤال لا يعرف جوابَهُ، ومن ثَمَّ فإنه يكثر التقحُّم في الكلام، وإطلاق الألسنة بما لم تستيقنه الصدور.

المسألة على كلِّ حال مسألة دين، ومسألة أمانة، ورحم الله إمام أهل المدينة مالك بن أنس[2]؛ فإنه قلما يفتي بشيء إلا ويتلو هذه الآية : ﴿ ... إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾(الجاثية : ٣٢)، وذلك منه – رحمة الله عليه – احتياطاً لدينه، ولزوماً لجادة الحق، وتقديراً للحقيقة.

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٦٢/٢).

(٢) حلية الأولياء (٣٢٣/٦).

النقطة الخامسة :

لا تغضب[1].. هذه وصية النبي ﷺ لرجل سأله أن يوصيه، وقال أيضاً[2]: (ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسَه عند الغضب).

ليس الشخص الشديد هو القوي الذي يصرع الناس ويغلبهم في المصارعة، إن الرجل الشديد هو الذي يملك عواطفه، ويملك انفعالاته في المواقف المغضبة.

يثير بعض المتحاورين أثناء الحوار التغضيب، من خلال إلقاء بعض الكلمات غير اللائقة، فيثور المحاور الآخر، وقد يوجه إليه نقداً لاذعاً، وقد يُنهي الحوار قبل بلوغ غايته.

الحلم، وسعة الصدر، والأناة، وحمل كلام المحاور على أحسن الوجوه، وغضّ الطرف عن عثراته.. كلُّ هذا من الصفات الحميدة التي نحتاج إليها في كلِّ المواقف، وفي كلِّ الأوضاع والأحوال، ويستطيع الفرد من خلال مجاهدته لنفسه في ذات الله تعالى أن يستوعب كثيراً من تشنّجات خصومه، وبذلك يكون قد خطا خطوة على طريق الفلاح وطريق الفضل.

النقطة السادسة:

خفض الصوت، واحترام المجالس، ولزوم السكينة.. هذه الصفات مهمة وجميلة، ويجب أن نتخلق بها، ومن المؤسف أن

(١) البخاري، كتاب : الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم ٥٧٦٥.
(٢) البخاري، كتاب : الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم ٥٧٦٣.

كثيراً من المحاورين يظنّ أنه من خلال الصياح والضجيج والجبلة وضرب المنضدة بيده.. يستطيع إفحام خصمه، ويستطيع السيطرة على المجلس.. إن هذا من بقايا عصور الانحطاط، وبقايا التخلف.

إن المحاور القوي يستمدّ قوته من هدوئه ورزانته، ومنطقية أقواله وحججه، وليس من الصراخ والصياح ؛ فالصوت المرتفع يُهيّج أعصاب السامعين، ويجعل الحوار أشبه بالمقاتلة الكلامية، وليس لأحد مصلحة أو فائدة في ذلك.

النقطة السابعة :

من المهم أن نحصل من وراء الحوار على ثمرة ملموسة؛ لأن الحوار ما دام يتم غالباً بين مختلفين ولو على مستوى الفرعيات والجزئيات ؛ ولأنه ما دمنا ننشد من وراء الحوار الوصول إلى الحق.. فإذاً من الطبيعي أن يحدث تغيير في آراء المتحاورين.

وشاهدتُ شخصياً العديدَ من الحالات التي تغيرت فيها آراءُ بعض المتحاورين، وأشخاصاً كثيرين يدافعون عن أفكارهم في بعض الحوارات ببسالة وصلابة، ويردون آراءَ غيرهم بقوة، ثم أشاهدهم في مجالس أخرى وقد تبنّوا آراءً كانوا يردُّونها، وهذا يدل على أن الحوار عامل مهم في التغيير وفي التطوير.

ويذكرون في هذا السياق أن الإمام الشافعي، والإمام أبا عبيد القاسم بن سلام تناظرا في تفسير (القُرْء) فذهب أحدهم إلى أن القُرءَ هو مدةُ الحيض، وذهب الآخر إلى أنه مدة الطُّهْر بين الحيضتين.

وبعد انتهاء الحوار كان كلٌّ واحد متمسكاً – على ما يبدو – برأيه وقوله، وبعد أيام حدثت مفاجأة سارة ونبيلة، حيث وجد الناس أن الإمامين تبادلا المواقع العلمية، وصار كلٌّ واحدٍ منهما بعد تلك المناظرة يقول بقول صاحبه الذي كان عليه قبل المناظرة[1].

إن هذا من الأشياء اللطيفة جداً في التاريخ، وربما تحدث أيضاً في الواقع اليوم.

لا شك في أن بعض الناس يصاب بتصلّب الذهن، وهو ينظر إلى التغيير والتجديد على أنه يشكل نوعاً من التنازل أو التهاون في حدود الشريعة الغرّاء ! وهذا ليس بصحيح.

يمكن أن يكون التغيير نحو الأحسن والأفضل والأصوب، وحين يتم التجديد بطريقة صحيحة؛ فإنه يهدف إلى المحافظة على الجوهر، ولو أدى ذلك إلى التضحية ببعض الشكليات وبعض الجزئيات.

النقطة الثامنة :

نحن نستهدف من وراء الحوار تنمية الحس النقدي لدى الأطفال في البيوت والمدارس، وإن ما يتم من مراجعات ومجادلات بين المتحاورين يعدّ وسيلة مثالية للوصول إلى تلك التنمية.

إن النقد لا يعني البحث عن السلبيات والمساوئ وأشكال

(١) ينظر : طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، في معرض الحديث عن ترجمة القاسم بن سلام.

القصور فحسب، بل يعني إلى جانب هذا أن نكتشف ما في الأقوال من خواصّ وحق، وأن نكتشف مساحات الجمال الموجودة في الأشياء، ومساحات الخير الموجودة في الأفعال والمواقف، ولدى الناس كافة.

باختصار: إن النقد يعني اكتشاف الإيجابيات والسلبيات، وما يقترب وما ينتمي إلى كلٍّ منهما.

نحن نريد من وراء الحوار أن ننمي لدى الصغار حاسة المقارنة؛ لأن المقارنة هي أمُّ كلِّ العلوم، نريد أن يدرك الأطفال منذ وقت مبكر أن الخير في الناس ليس مطلقاً، وكذلك الشر، بل هو شيء نسبي، ولم يجعل الله عزَّ وجلَّ الفضائل حكراً على جيل، أو على شعب، كما أنه لم يجعل الرذائل من نصيب أمة معينة من الأمم.

كما نريد أن نرسخ في أذهان الأطفال من خلال الحوار والشرح المطول والمركز أن الخير المحض نادر، كما أن الشر المحض نادر، وأنّ هناك واجباً دون واجب، وحراماً دون حرام، وأذىً دون أذى، ونجاحاً دون نجاح، وإخفاقاً دون إخفاق.

إن تنمية هذه المعاني تساعدنا على التخفيف من التوتر ومن الاحتقان الاجتماعي، وتؤسس في عقول أبنائنا ونفوسهم ونظراتهم إلى الحياة فقه الموازنات، وهذا الفقه العظيم يقوم على عدد من المبادئ الجوهرية والأساسية في التفكير وفي الفهم وفي رؤية الأشياء.

ومن المبادئ التي يقوم عليها فقه الموازنات : لكل شيء ثمن.

انتهى زمن الأشياء المجانية، لذلك لكلِّ شيء ثمن، وهذا الثمن قد يكون مالاً، وقد يكون جهداً، وقد يكون وقتاً، وقد يكون على حساب كرامة الإنسان، وقد يكون على حساب التزامه وتديّنه، وقد يكون على حساب سمعته.. كلُّ شيء له ثمن يجب أن يذكر، وأصبح الهواء النقي في بعض المناطق الملوثة من العالم له ثمن يجب دفعه.

ومن المبادئ التي يقوم عليها فقه الموازنات : ضرورة العمل على تحقيق خير الخيرين، ودفع شرِّ الشرين، فقد يُفوِّت المرءُ خيراً أصغر للحصول على خير أكبر، وقد يدفع شراً أكبر بالوقوع في شرٍّ أصغر، وقد نحتمل الضرر الأصغر من أجل تفادي الضرر الأكبر.

لا ريب في أن جهدنا وإمكاناتنا محدودة، وأعمارنا محدودة، وطاقتنا على التحمل محدودة، وعلومنا محدودة، ومعارفنا محدودة، وعلاقتنا محدودة، ومساعدة الناس لنا محدودة أيضاً؛ لذا فإن من أسس فقه الموازنات أن الإنسان ما دام يعتمد في أعماله ومواقفه وإنجازاته وعلاقاته على عدد من الأشياء الناقصة والمحدودة.. فهذا يعني أننا لا نستطيع الوصول إلى كلِّ ما نريده دائماً، أو إلى معظم ما نريده في بعض الأحيان، فلنحاول أن نفعل أفضل ما يمكن فعله، ونَرضَى بما يَقسم الله تعالى لنا من ثمرات ونتائج، بدلاً من اللجوء إلى الشكوى، وشجب الذات، ولوم الآخرين.

النقطة التاسعة :

تتأسس من خلال الحوار – على نحو غير مرئي، وغير محسوس، وغير مباشر – نفسية الرخاء، وعقلية السعة، وروح الرحابة.

حين ينعدم الحوار أو يضعف في مؤسسة أو أسرة أو مدرسة أو مجتمع، فإن كلَّ واحد من الناس يشعر بالعوَز، ويشعر بالضيق، وقلة الفرص، ويسود اعتقاد : " إن تقدمي ونجاحي يجب أن يكون على حساب الآخرين ! "، ويعتقد الآخرون بمثل ذلك أيضاً ؛ أي : لا يستطيعون التقدم إلا على حساب أشخاص آخرين ؛ وهذا بسبب سيطرة فلسفة خفية توحي إلى الناس : بأنه ليس في الأرض ما يكفي من الخير لإسعاد جميع الناس، فتسيطر عقلية الشح حتى في الأفكار والآراء.

فالأمور محسومة : فإما أن يكون الحق معي، وإما أن يكون معك، وإما أن أكون على الطريق الصحيح، وإما أن تكون أنت على الطريق الصحيح ، حيث ليس هناك طريق ثالث..!

يفكر الناس في حالة انعدام الحوار ويتصرفون على أساس : إما أنا وإما أنت..! لا يرون أن هناك ألواناً قد تصل إلى المليون، بل في رأيهم هناك لونان فقط : أبيض وأسود ، إما معنا وإما ضدنا !

تعالوا نتأمل قول الله جلَّ وعلا : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٦٨).

إننا من خلال الحوار نكتشف القواسم المشتركة، ونجد أن الذي يقف في أقصى اليمين، والذي يقف في أقصى اليسار، يبدوان لنا أنهما متباعدان جداً، وهذا صحيح، ولكن حين يُعتَمد الحوار على أنه أسلوب حياة فإنه يتطلب بطبيعته بلورة قواعد جديدة للتعامل، واكتشاف أرضيات جديدة للتلاقي والتواصل.

إن اللعب مثلاً هو اللغة التي يتواصل بها الأطفال، أو هو الحوار الذي يستخدمه الأطفال حين يجتمع بعضهم مع بعض، ومن الملاحظ أنك لو أعطيت درّاجة للأطفال ليركبوها، أو أعطيتهم صوراً ليلعبوا بها، فإنه خلال دقائق معدودة يضعون قواعد للعب والتسلّي بما أعطيتهم إياه.

وهكذا نحن الكبار؛ فإننا من خلال الحوار الناجح والمستمر نبدأ في اكتشاف المبادئ والمصالح والأدبيات والرمزيات التي تجمع بيننا، وتقرب بعضها من بعض.

يحدُّ الحوار من الخلاف في العديد من الأمور، ويُزيل سوء الفهم، وسوء التقدير، وسوء الظن الذي يسود في حالات التدابر والتجافي، وهذا كله يُمهّد الطريق للتعاون والتعاضد والعمل معاً، وكأننا فريق واحد.

النقطة العاشرة :

إن الحوار ينعش فيمن نربيهم الشهية لطرح الأسئلة، ويتضمن الحوار بطبيعته ما لا يخفى من الأسئلة.

يستفهم المحاور من محاوره عن بعض الغوامض، ويطلب منه

الدليل على بعض ما يمليه من أقوال وآراء ومسائل، كما أنه يعترض من خلال الأسئلة على بعض ما يقوله محاوره.. وهذا كله يُمرِّن الأطفال والناشئة والشباب والكبار على أن يسألوا عن الأشياء غير المنطقية وغير المستساغة مما يرون ويسمعون.

إن كثيراً من ينابيع الحكمة يتفجر، وكثيراً من شرارات الإبداع والابتكار ينقدح ويتوهج ويتألق من خلال الأسئلة التي يطرحها النابغون والسائرون في طريق النجاح وفي طريق التفوق.



الخاتمــة



الخاتمة

الخلاصة من وراء كلِّ ما قلته : إن طريق الحوار هو طريق المستقبل، وهو طريق الفهم العميق، والرؤية الثاقبة، وطريق التآخي والتعاون.

ولا نعني من كلِّ هذا ألا تحدث بعض الأضرار الجانبية ؛ فالخير المحض كما أشرت نادر، وإذا لم نسلك طريق الحوار فقد يكون الطريق الذي نسلكه هو التباغض والتجافي والتعانف والانغلاق وسوء الفهم.. ولا يستطيع أحد أن يدافع عن هذا الطريق أو يرتجي منه خيراً يذكر.

هذا ما أردت بيانه في هذا العمل، وأسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا أن يلهمنا رشدنا في الأمر كلِّهِ، وأن ينور قلوبنا ويبصرنا بعيوبنا إنه سميع مجيب.

وصلى الله وسلم على عبده وحبيبه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.